

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٠-٣١) : تفسير موجز لسورة التكاثر من كلام ابن القيم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة تشرح سورة التكاثر، الله عز وجل حينما قال:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾

(سورة التكاثر)

الحقيقة حينما وصفت الحياة الدنيا من قبل الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٣٦) ﴾

(سورة محمد)

ما اللهو؟ أن تشتغل بالخسيس وتنسى النفس، أن تلهو بالخسيس وتعرض عن النفس، أن تشتغل بجمع الأصداف وتنسى اللآلئ، فأبي إنسان اشتغل بالدنيا ونسى الآخرة فهو في لهو، اشتغل



بزخرف الدنيا ونسي حقيقة الآخرة فهو في لهو، اشتغل بما يحقق متعته في الدنيا ونسي العمل الصالح فهو في لهو، أنت حينما أتيت إلى الدنيا جئت من أجل العمل الصالح، بدليل أن الإنسان حينما يأتيه الموت يقول:

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾

(سورة المؤمنون)

بعد الإيمان بالله علة وجودك العمل الصالح، لأن العمل الصالح ثمن الجنة، ولأن العمل الصالح يرفع الإنسان، ولأن العمل الصالح هو السبيل إلى الله عز وجل، والدليل:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾

(سورة الكهف الآية: ١١٠)



غنى الإنسان غنى عمله الصالح

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح، والغنى غنى العمل الصالح، والفقر فقر العمل الصالح، فلذلك الإنسان في الدنيا يلهو، يشتغل بالخسيس وينسى النفيس، يشتغل بزخرف الدنيا وينسى الآخرة، لذلك أكبر خسارة يعاني منها الإنسان أن يخسر الدار الآخرة:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

(سورة الزمر الآية: ١٥)

الإنسان أحياناً يعمل في التجارة لسنوات عديدة، ويشترى، ويبيع، ويسافر، ويحصل الديون، وفي نهاية الحسابات لم يربح شيئاً، شيء مؤلم جداً، فإذا كان هناك خسارة كبيرة يقول: ليتني لم أضع وقتي في هذه التجارة أو في هذه الصفقة، فعدم الربح مؤلم والخسارة أشد إيلاماً، فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت، ويكتشف أنه



ندم الآخرة لا يحتمل ولن ينفع

نسي الهدف الأول من وجوده في الدنيا، هذا الحال لا يحتمل، قال: " إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ".

ألم الندم لا يحتمل، جئت إلى الدنيا لسنوات معدودة، أمضيتها في اللهو، في اللقاءات الفارغة، في متابعة المسلسلات، في لعب النرد، في الغيبة والنميمة، في السفر والسياحة، ثم جاء ملك الموت، فإذا أنت أمام حياة أبدية لا تنقضي، وليس معك من عملة هذه الدار شيء، قد يكون معك مليارات ممليرة هذه العملة تصلح في الدنيا عندما يأتي ملك الموت كل هذه الأموال لا تقدم ولا تؤخر:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

(سورة الزمر الآية: ١٥)

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف وتسخير تكريم:



أخوتنا الكرام، أنت حينما تحقق الهدف من وجودك قال تعالى:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَآمَنْتُمْ ﴾

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

الله عز وجل سخر لك هذا الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، ينبغي من تسخير التعريف أن تؤمن، وينبغي من تسخير التكريم أن

تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، والشكر أنواع ؛ أن يمتلئ القلب امتناناً من المنعم، هذا شكر، والشكر أيضاً أن تنطق بكلمة الحمد لله، لكن أعلى أنواع الشكر:

﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾

(سورة سبأ الآية: ١٣)

أن تقابل نعم الله عليك بعمل صالح يرفع عباده الصالحين، فلذلك أعلى مستوى من الشكر أن تكون في خدمة عباده، لأن:

((الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

بطولة الإنسان أن يعرف سرّ وجوده وغاية وجوده:

إذا:

﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾

(سورة التكاثر)

أيها الأخوة الكرام، ليس محرماً أن تسعى لرزقك، ولا أن تسعى لشراء مأوى تأوي إليه، وليس محرماً أن تبحث عن زوجة صالحة تسعدك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها، إن المشكلة في



ليس محرماً أن تسعى لرزقك

التكاثر، بعد مرحلة معينة، بعد كسب المال، بعد تحقيق ربح كبير، يدخل الإنسان في متهاة التكاثر، قال تعالى:

﴿ وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾

(سورة الزخرف)

إنسان يترك مليارات ماذا يأكل؟ يأكل وجبة واحدة لا تزيد عن خمسمئة غرام، يرتدي ثوباً واحداً، ينام على سرير واحد، له مكان واحد يؤوي إليه، هذا الرزق، الرزق ما انتفعت به، والكسب الرقم الذي في حساباتك، هذا الرقم لا يعني شيئاً أنت محاسب عن طريقة كسبه ولم تنتفع به، فذلك البطولة أن تعرف سرّ وجودك وغاية وجودك، أن تعرف لماذا أنت في الدنيا؟ أنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله، ومن أجل العمل الصالح.

خسارة الإنسان الكبيرة أن ينسى الآخرة ويدخل في متهاة التكاثر:

لذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾

(سورة العصر)

إلهنا وربنا وخالقنا يقسم بمطلق الزمن لنا، ونحن بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منا، يقسم ويقول:

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾

(سورة العصر)

قال: لأن مضي الزمن يستهلكه، إذاً:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾

(سورة التكاثر)

ليس عاراً أن تبحث عن زوجة صالحة، أن تبحث عن مأوى، أن تبحث عن عمل ترتزق منه، لكن الخسارة الكبيرة أن تنسى الآخرة، وأن تدخل في متهاة التكاثر، التكاثر بالأموال، بالأولاد، بحجم الأرباح، بالمتع الرخيصة، بالبيوت، بالمركبات:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾

(سورة التكاثر)

الموت نهاية كل شيء:

النهاية:

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) ﴾

(سورة التكاثر)



الموت نهاية كل شيء

تصور سباق مضحك، طريق عريض وطويل، و سباق سيارات كبير، سيارات من كل الأنواع كبيرة، وصغيرة، وحديثة، وقديمة، وجميلة، وغير جميلة، ومتقنة، وغير متقنة، السيارة الأولى هذا الطريق ينتهي بقاطع بعمق مئة متر، السيارة الأولى سقطت، والثانية سقطت، والثالثة سقطت، والرابعة سقطت، وكل هذه

السيارات سقطت في هذه الحفرة العميقة هذا سباق مضحك، يجمع أموالاً طائلة، يقف قلبه، كل هذه الأموال ليست له، يصل إلى منصب رفيع بعد جهد جهيد، كل هذه المكاسب من هذا المنصب يموت ينتهي منصبه، يقتنر بأجمل زوجة يموت فيفارقها، أو تموت فتفارقه:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) ﴾

(سورة التكاثر)

النهاية ثم ماذا، ماذا بعد الغنى ؟ القبر، ماذا بعد المتع الرخيصة ؟ القبر، ماذا بعد القوة أي أن تكون قوياً في العالم ؟ القبر، ملوك يموتون، ماذا بعد الوسامة ؟ القبر، ماذا بعد الذكاء ؟ القبر، ماذا بعد طلاقة اللسان ؟ القبر.

والله مرة قرأت كتاباً عن قصص العرب، و هو عبارة عن أربعة أجزاء، كتاب فيه ما هبّ ودبّ، قصص الأذكىء، والأغبياء، والأغنياء، والفقراء، والأقوياء، والضعفاء، والعقلاء، والمجانين، قديماً وحديثاً، بعد أن انتهيت من قراءة هذه الكتاب وجدت أن الأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكىء ماتوا، والحمقى ماتوا، والذين استمتعوا بالحياة ماتوا، والذين لم يستمتعوا ماتوا، هذا الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقير الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ينهي كل شيء:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) ﴾

(سورة التكاثر)

والله أيها الأخوة، في بدايات طريق الإيمان تعلمت أن أزور المقابر كثيراً، إنسان يوضع في النعش، يفتح غطاء النعش، يفتح القبر، يوضع في القبر، توضع قطعة من الحجر كبيرة تغطي فتحة القبر، يهال التراب على الميت وانتهى، هذا الملف انتهى، من بيت أربع غرف، وزوجة، وأولاد، ومنصب، وتجارة، ومكتب سفر،



ابداً من النهاية واستعد للموت كي تسلم

وولائم، وسهرات، واحتفالات، وأمسيات، ومسامرات، وطرف، إلى القبر، البطولة أن تعيش المستقبل، ابدأ من النهاية، بعض قواعد البرمجة اللغوية العصبية تقول: ابدأ من النهاية وتأقلم مع النهاية، لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينكر حدث الموت، ولكن العقلاء يستعدون للموت، الناس يتفاوتون في الاستعداد للموت، هناك من يستعد له بطلب العلم، بالعمل الصالح، بتربية أولاده، بإنفاق المال:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) ﴾

(سورة التكاثر)

القبر يزار، بعد الزيارة هناك خروج من القبر، كلمة زرتم كلمة دقيقة جداً، أنت تزور القبر، لكن بعد القبر هناك جنة وهناك نار، والإنسان حينما يولد أمام خيارات عديدة لا تعد ولا تحصى، أما حينما يأتيه ملك الموت أمام خيارين لا ثالث لهما:

((و الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم]

تحذير الله عز وجل الإنسان من نسيان الآخرة و اللهو بالدنيا:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا (٣) ﴾

(سورة التكاثر)

﴿ كَلَّا ﴾

أداة ردع ونفي، إياك أن تلهي بالتكاثر، إياك أن تنسى الموت، أن تنسى الدار الآخرة، أن تنسى الصراط المستقيم، أن تنسى الجنة التي أعدها الله للمتقين، أن تنسى النار التي فيها كل المجرمين:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا (٣) ﴾

(سورة التكاثر)

﴿ كَلَّا ﴾

أداة ردع ونهي:

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ﴾

(سورة التكاثر)

تعلمون عند الموت أن هذه الدنيا لا قيمة لها، في بدايات الحياة ترى أن المال كل شيء، وفي منتصف الحياة تراه شيئاً، ولكن على مشارف الموت لا ترى المال شيئاً، في البدايات ترى المرأة كل شيء، بعد حين من الوقت تراها شيئاً وليست كل شيء، أما عند الموت لا ترى هذه المتعة شيئاً ترى طاعة الله هي كل شيء، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[ورد في الأثر]

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

(سورة التكاثر)

أهل الأرض عند الموت يعرفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء:

كل أهل الأرض عند الموت يعرفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء:

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

(سورة ق)

فرعون الذي قال:

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾

(سورة النازعات)

والذي قال:

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

(سورة القصص الآية: ٣٨)

عندما أدركه الغرق قال:

﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ نَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾

(سورة يونس الآية: ٩٠)

فقيل له:

﴿ أَلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ (٩١) ﴾

(سورة يونس الآية: ٩٠)

الإِنسان يوم القيامة على مشارف الجنة أو مشارف النار لا محالة:

أيها الأخوة الكرام:

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ﴾

(سورة التكاثر)



لا بدّ من أن تكتشف الحقائق التي جاء بها الأنبياء بشكل قطعي، مسلم، غير مسلم، ملحد، علماني، جهلاني، لا بدّ من أن تكتشف الحقيقة عند الموت:

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ

حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

(سورة ق)

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

(سورة التكاثر)

يوم القيامة وأنتم على مشارف الجنة أو مشارف النار:

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾

(سورة الزمر الآية: ٨٧)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٌ حِسَابِيهِ

(٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) فُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا

هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾

(سورة الحاقة)

النار عاقبة من يبني مجده على أنقاض الآخرين و غناه على فقرهم:

﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ

تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ﴾

(سورة التكاثر)

تصور إنساناً يقود مركبة في طريق هابط، شديد الانحدار، والسرعة متعاطمة، ثم اكتشف أن المكبح معطل، وهذا الطريق الهابط ينتهي بمنعطف حاد، بالمئة مليون الحاد حتمي، يقول لك: انتهىنا:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ﴾

(سورة التكاثر)

هذا المرابي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم، هذا الذي يعتدي على أعراض الناس، يظن نفسه ذكياً، لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم، هذا الذي لا يؤدي ما عليه من حقوق، هذا العاق لوالديه،



هذا الذي يؤدي المسلمين، هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقرهم، يبني حياته على موتهم، يبني عزه على ذلهم:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ﴾

(سورة التكاثر)

المثل واضح، مركبة منطلقة بسرعة عالية جداً، في طريق شديد الانحدار، وينتهي بمنعطف حاد، واكتشف السائق أن المكبح معطل يقول لك: انتهينا:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾

(سورة التكاثر)

أي شيء في الدنيا تنتعم به سوف تحاسب عليه:

يوم القيامة:

﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾

(سورة التكاثر)



وقت الفراغ كيف أمضيته ؟ الصحة ماذا فعلت بها ؟ سخرتها لطاعة الله أم لمعصية الله ؟ تقويت بصحتك على معصية الله أم على طاعة الله ؟ وقت الفراغ، هذه الزوجة التي أكرمك الله بها هل أكرمتها ؟ هل قصرت طرفك عليها ؟ هل عاملتها كزوجة ؟ هل أحسنت إليها ؟ الأولاد الذين أنجبتهم هل علمتهم ؟ هل رببتهم ؟ هل عرفتهم

بربهم ؟ المال الذي بين يديك هل أنفقته في سبيل الله ؟ طلاقة اللسان التي أوتيتها هل كانت دعماً للحق أم للباطل ؟ أي شيء حتى قال بعض العلماء: لتسألن عن الماء البارد. دخلت إلى البيت عندك ثلاجة وفيها ماء بارد هل شكرت الله على هذا الماء البارد ؟

﴿الْهَآكِمُ التَّكَآثُرُ(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٨)﴾

(سورة التكاثر)

الفراغ نعيم، والمتزوج نعيم، متزوج ويزني؟! عجيب أنت محصن، الذي يأكل الربا غني ومعه أموال طائلة يأكل الربا؟! أي شيء في الدنيا تنتعم به سوف تحاسب عليه، لذلك هذه السورة القصيرة والله من أبلغ السور، بل إنها تنطوي على مواضع بليغة جداً:

﴿الْهَآكِمُ التَّكَآثُرُ(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ(٨)﴾

(سورة التكاثر)

والحمد لله رب العالمين